مطويات شبكة بينونة الرمضانية

حق الله عز وجل التوحيد

الشيخ
د. محمد بن عبيد الغيث

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة السلام على من لا نبي بعده أما بعد:

فهذه وقفة مع حق ليس كالحقوق، ألزمه الله أعناق العباد، وأخذ به ميثاقهم وهم في الأصلاب، وأرسل به الرسل وأنزل به السُنة والكتاب، حق السعادة به مرهونة، والنجاة مضمونة، أمن وهداية، وتمكين وخلافة، ورضوان وجنة، أتدرون ما هو؟ إنه «حق الله التوحيد».

أول واجب، وآخر واجب، وحق الله الواجب عن معاذ بن جبل ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا، قلت: يا رسول الله: أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[1]. [متفق عليه]

فحق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. قال الإمام العلامة ابن كثير: «وعبادته هي طاعته بفعل المأمور، وترك المحذور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع»[2].

وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: يوحدوه بالعبادة، فلابد من التجرد من الشرك في العبادة،

(١) الراوي: معاذ بن جبل. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ٣٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. ص: ١٤.

ولذلك قال الله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٣-١٦٢] .

وقال الحبر ابن عباس في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذَّارِيَات : ٥٦] . قال: إلا ليوحدون.

فالتوحيد هو أساس العمل وصحته. قال الإمام ابن القيم: «من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أثاثه وإحكامه، وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأثاث وإحكامه»(٣).

فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء من غير أساس، فلا يلبس بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التَّوبَة : ١٠٩] .

وهذه الآية أيها المسلمون نزلت في المنافقين، الذين بنوا مسجدًا للصلاة فيهم، ولكنهم أتوا بهذا العمل العظيم، وقلوبهم خلوٌ من الإيمان والتوحيد، فأرداهم عملهم، ولم ينفعهم، بل انهار بهم في نار جهنم.

ثم قال العلامة ابن القيم: «وهذا الأثاث أمران: الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته. والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه»(٤).

ثم قال رحمه الله: «فهذا أوثق أساسٍ أسس العبد عليه بنيانه،

(٣) كتاب الفوائد لابن القيم. ص: ١٦٥.
(٤) مدارج السالكين. ص: ١٤.

وبحسبه يعتري البناء ما شاء الله، فأحكم الأساس، واحفظ القوة، ودم على الحمية»[٥].

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]

وفي هذا دليل واضح على أن الإصلاح يبدأ بالتوحيد، وينتهي بالتوحيد، ويركز فيه بين ذلك على التوحيد، وأنه أساس الثبات في الدنيا وعند الممات، وأنه بمثابة الأساس من البنيان والجذور من الشجرة، وأن الأعمال أغصان وثمار.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «الإخلاص والتوحيد شجرةٌ في القلب فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة»[٦].

فكما أن ثمار الجنة لا مقطوعةً ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك، والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف، والغم، وضيق الصدر، وظلمة القبر، وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم.

قال: «وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم».

(٥) كتاب الفوائد لابن القيم. ص: ١٦٥.
(٦) ابن القيم: الفوائد. ص٢٦٧. ٤٣.

يشير إلى الآيات السابقة، فالتوحيد نعيم الدنيا وسعادة الآخرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل :٩٧].

ولما كان التوحيد أساس صلاح الأعمال وإقامتها كان أول أمرٍ يصادق الناس عند افتتاح المصحف من أوله، وذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البَقَرَة :٢١]. هذا أمر بالتوحيد.

ثم قال بعده: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة : ٢٢] .

وهذا أول نهي، وهو نهي عما يضاد التوحيد وهو الشرك، وفي هذا بيان أن الداعي لا يكتفي ببيان التوحيد دون تعرية الشرك، فالله لم يأمرنا بعبادته فحسب، بل ونهانا عما ينقض ذلك، وبعث بذلك الرسل، وتأمل يا مسلم تأمل كتاب ربك تجده حكمًا مضطردًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النَّحل : ٣٦].

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النِّسَاء :٣٦] .

فالشرك أولى المحرمات التي يُنهى عنها، ولذلك قال الله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أول محرم: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعَام :١٥١].

وأول وصية قدمها لقمان الحكيم لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لُقمَان : ١٣]. وهذا يدل على أن أفضل الدعاة هم دعاة التوحيد، لأنهم يدعون إلى أعلى الدرجات.

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان »[٧].

رواه الإمام مسلم.

قال الإمام النووي عليه رحمه الله: «وقد نبه ﷺ على أن أفضلها التوحيد، المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته »[٨].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: «مقام التوحيد أولى المقامات التي يبدأ به، كما أنه أول دعوة الرسل كلهم »[٩].

قال النبي ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن: « فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله »[١٠].

وفي رواية: « إلى أن يعرفوا الله »[١١] قال رحمه الله: «ولأنه لا يصح مقامٌ من المقامات، ولا حالٍ من الأحوال إلا به، فلا وجه لجعله آخر المقامات، وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول فرضٍ فرضه الله على العباد »[١٢].

فالتوحيد أعظم الواجبات، ولذلك كُرر في القرآن وأعيد، حتى قال ابن القيم: «كل آيةٍ في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه ».

---

(٧) الراوي: أبو هريرة. المحدث : مسلم. المصدر : صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ٣٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٨) شرح النووي على مسلم. مجلد ٢. صفحة ٣. كتاب الإيمان.

(٩) مدارج السالكين. المجلد الأول.

(١٠) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث : البخاري. المصدر : صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ١٤٩٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج : أخرجه البخاري (١٤٩٦) واللفظ له، ومسلم (١٩).

(١١) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث : البخاري. المصدر : صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ٧٣٧٢. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج : أخرجه مسلم (١٩) باختلاف يسير.

(١٢) مدارج السالكين. المجلد الأول.

فالتوحيد التوحيد أيها الناس، صلاحه من الدين بمنزلة إصلاح القلب من الجسد.

عن النعمان بن بشير ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[١٣]. متفق عليه.

فإصلاح القلب بالتوحيد هو أصل كل صلاح وأعظمه، والموفق من وفقه الله، والعلم بالتعلم، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العَنكَبُوت:٦٩] .

وقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [النُّور: ٥٥] .

هذه آية الاستخلاف والتمكين والأمن، وشرطها: التوحيد، ﴿ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾.

﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأَنعَام:٨١] .

هذا سؤال ذكره الله في كتابه، وتولى الجواب عنه فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم ﴾ [الأَنعَام: ٨٢] أي: لم يخلطوا إيمانهم ﴿ بِظُلۡمٍ ﴾، أي: بشرك، هؤلاء هم السعداء أصحاب الهداية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأَنعَام :٨٢] .

مهتدون في الدنيا والآخرة، وآمنون في الدنيا والآخرة، هذا جزاء التوحيد.

---

(١٣) الراوي: النعمان بن بشير. المحدث : مسلم. المصدر : صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ١٥٩٩. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج : أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)..

« حق الله على العباد أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا »[١٤].

بل قال تعالى في الحديث القدسي: « يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة »[١٥].

هذا هو التوحيد الخالص ليس معه أدنى شرك، هذا الذي يُبدأ به ويُغرس في القلوب ويُنشأ عليه الأجيال، ولذلك قال النبي ﷺ لابن عباسٍ رضي الله عنهما وهو غلام خلفه: « يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[١٦].

قال الإمام العلامة ابن الجوزي: «تأملت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه»[١٧].

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١٤) الراوي: معاذ بن جبل. المحدث: محمد ابن عبد الوهاب. المصدر: الرسائل الشخصية لابن عبد الوهاب. الصفحة أو الرقم: ٤٦. خلاصة حكم المحدث: ثابت. التخريج: أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) باختلاف يسير.

(١٥) الراوي: أنس بن مالك. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح الترغيب. الصفحة أو الرقم: ٣٣٨٢. خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره. التخريج: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، وأحمد (١٣٤٩٣) مختصراً بمعناه.

(١٦) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح الترمذي. الصفحة أو الرقم: ٢٥١٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(١٧) جامع العلوم والحكم. ص: ٤٦٢.